عوامل حفظ السنة
في العصر النبوي

بقلم :
دكتور / عاطف أحمد أمان
أستاذ مساعد بقسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة
العدد الثالث - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وسلك طريقه إلى يوم الدين . . وبعد ،

فإن سنة رسول الله ﷺ هي الأصل الثاني للتشريع الإسلامي ، بعد القرآن الكريم ، وهي مفتاح كتاب الله تبارك وتعالى ، المرشدة الهادية إلى ما خفي على العقول فيه فهي المبينة لكتاب الله تبارك وتعالى ، الموضحة لأحكامه ، المفصلة لإجماله ، وهي التي تمثلت في أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته ، وهو ﷺ الذي ما ينطق عن هواه إنما بوحي من الله ، قال تعالى : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»[1] .

فالقرآن والسنة صنوان لا يفترقان ، ومنبعان للتشريع متعاضدان .

وقد ابتلى المسلمون في كل زمان بمن يحاول صرف المسلمين عن دينهم بطرق شتى منها الطعن في كتاب الله تبارك وتعالى ، ومنها الطعن في سنة رسول الله ﷺ التي تفصل ما أجمل منه وتوضح ما خفي ، وكأنهم حين وقفوا من القرآن أمام جبل شامخ لا يلين ، ورجعوا بعد العناد بخفي حنين كما يقال . ظنوا أنهم قادرون على النيل منه بتوهين السنة المبينة له وتكلفوا في ذلك شططا ، فمنهم من تجنى على الرواة وطعن في عدالتهم وصدقهم ، ومنهم من طعن في متن الحديث فأنكر منه ما لم يوافق هواه ، ومنهم من ادعى انقطاع الصلة بين الرسول وما يروى عنه في عصره . . الخ .

---

(١) النجم : آية : ٣ ، ٤ .

ولا شك أننا لو ركزنا على العصر النبوي ، وعلمنا أن سنة رسول الله ﷺ قد حفظت فيه أيماً حفظ . فإن ذلك يجعل القلوب تطمئن على أن الأصل الثاني للتشريع الإسلامي قد وصل إلينا ونقل إلينا محظوظاً من كل شائبة ، وفي ذلك أيضاً ما يدفع الشكوك والأوهام والمفتريات من أعداء الإسلام على سنة رسول الله ﷺ .

وذلك لأن العصر النبوي ، هو الأصل الذي يُرجع إليه ، والذي يطمأن إليه ، فهو عصر نزول الوحي من الله رب العالمين ، وهو عصر وجود الرسول الكريم الذي لا ينطبق عن الهوى ، وهو عصر وجود الصفوة الصادقة المختارة من الصحابة رضي الله عنهم ، الذين لازموا الرسول ﷺ ، وأجمع العلماء على صدقهم ، وعدالتهم .

وخلاصة القول في ذلك العصر هو قول الرسول ﷺ : (خير أمتي قرني ثم الـذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . الحديث) قال راوي الحديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً . ثم قال الرسول ﷺ : « ثم أن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون . ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن »[(١)] .

لهذا كله كان بحثي عن أهم عوامل حفظ سنة النبي ﷺ في ذلك العصر . وقد ذكرت ثلاثة عوامل أراها أنها من أهم العوامل في حفظ سنة ﷺ في ذلك العصر الكريم ، وهي :

العامـل الأول : شخصية النبي ﷺ .

العامل الثاني : السنة من حيث مادتها وأهميتها .

العامل الثالث : اهتمام الصحابة بسنة النبي ﷺ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، بهذا اللفظ جـ٤ ص١٨٩ .

والله أسأل أن يوفقني للصواب في القول والعمل ، وأن يجعلنا من الذين يدافعون عن سنة رسول الله ﷺ ، حتى نحشر يوم القيامة في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

عوامل حفظ السنة
في العصر النبوي

العامل الأول : شخصية الرسول ﷺ

إن أول عامل لحفظ السنة في العهد النبوي هو ما كان يتميز به الرسول ﷺ ، من شخصية فريدة تتمتع بصفات خلقية سامية لم يرق إليها بشر ، كذلك كان ﷺ خير مرب ومعلم .

أما من ناحية الخلق :

فلقد اصطفى الله تعالى حبيبه محمداً ﷺ ، ورباه فأحسن تربيته واصطنعه على عينه وذلك ليتمكن من حمل الرسالة الخالدة ، وتبليغها للناس أجمعين . فأعده الله اعداداً عظيماً في هذا الجانب الخلقي ، حتى كان خلقه القرآن كما ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها .

فقد سأل حكيم بن أفلح السيدة عائشة فقال : قلت : ياأم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت السيدة عائشة ألست تقرأ القرآن ؟ قال : قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن[1] .

فكل ما جاء به القرآن الكريم من صفات حميدة ، وأخلاق كريمة كانت تلك صفاته ، وأخلاقه ﷺ ، التي يعيش بها بين الناس ، والتي كانت من أهم أسباب إقبال الناس عليه ، وعلى دعوته ، وسنته .

«فلم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول : «إن خياركم أحسنكم أخلاقاً»[2] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ جـ٤/١٦٦ عن عبدالله بن عمرو . طبعة الشعب .

وكان ﷺ « أشد حياء من العذراء في خِدرها »(١) وإذا كره شيئاً عرف في وجهـه . وإذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعه قمر(٢) . وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً »(٣) .

ومجمل القول أنه ﷺ كان سيد الناس في أخلاقه ، ومعاملاته ، وكيف لا وقد اختاره الله تعالى ليكون أسوة حسنة ، وأوحى إليه ليكون لهم بشيراًونذيراً ؟ قال تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي صلال مبين »(٤) .

ومهما حاولت أن أصف الدرجة التي وصل إليها الرسول ﷺ من الخلق الكـريم والسلوك المستقيم فلن أستطيع الأحاطة بذلك ولا غرابة فأي أديب يمكنه أن يعبر عن العناية الألهية التي شملت رسول الله ﷺ في جميع مراحل حياته ؟ !!

وأي مؤرخ يمكنه أن يستقصى جميع أخباره دقيقها ، وجليها في هذا المجال ؟!!

ومع هذا فإن المؤلفات التي دونت عن حياة رسول الله ﷺ في مختلف ظواهرها لم يدون مثلها لرجل في التاريخ قط .

وكانت مهمته ﷺ صعبة ، جليلة يبلغ للناس آيات الله جل وعلا ، ويفقهم في الـدين ، وينقـذهم مما كانوا فيه ، لذلك كله ﷺ يتمتع بصفات خلقيه سامية ، ويكفينا في ذلك كله شهادة الله سبحانه وتعالى له إذ يقول : « وإنك

(١) المرجع السابق جـ٤ ص١٦٧ عن أبي سعيد الخدري .
(٢) المرجع السابق جـ٤ ص١٦٦ عن كعب بن مالك .
(٣) المرجع السابق جـ٤ ص١٦٥ عن البراء بن عازب .
(٤) سورة الجمعة : آية رقم ٢ .

لعلى خلق عظيم »[1] وكـان هذا - كمـا قلت سابقاً - من أهم أسباب إقبال الناس عليه وعلى سنته .

وأما من الناحية العلمية :

فقد بلغ الرسول ﷺ من العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه ، حيث شرح الله صدره ، وعلمه مالم يكن يعلم ، فكان ﷺ المرجع الأول للمسلمين في أحكام القرآن ، وتعاليم الإسلام ، وعرف أخبار السابقين ، وأوتي جوامع الكلم ، يدرك ذلك من تتبع سيرته ﷺ ، قال الله تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »[2] .

فعلم ﷺ دقائق أحكام القرآن وبينه بسنته الطاهرة ، وسلوكه المستقيم . فكان المعلم الأول والمرشد الصادق الأمين إلى الطريق القويم .

وإذا عرفنـا موقف الرسول ﷺ من العلم والحث على طلبه ، وتشجيعه أصحـابه على ذلك ، لعلمنا أنه كان لذلك الأثر الكبير في حفظ السنة إلى جانب القرآن الكريم .

فقد بين الرسول ﷺ منزله العلم ، وحض على طلبه ، فقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[3] .

وقال ﷺ : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد »[4] .

---

(١) سورة القلم : آية رقم ٤ .

(٢) سورة النساء : آية رقم ١١٣ .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب العلم جـ١ ص٢٧ عن معاوية ، ومسلم في كتاب الإمارة حديث رقم ١٧٥ عن معاوية .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه جـ١ ص٨١ ، والترمذي في سننه في كتاب العلم حديث رقم ٢٦٨١ عن ابن عباس وقال الترمذي : هذا حديث غريب ولا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث =

وجعل الرسول ﷺ طلب العلم الشرعيّ الذي يحتاج إليه المسلم ليقيم أمـور دينـه فريضة على المسلم فقال عليه الصلاة والسّلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[1] .

وأما العلوم الأخرى التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم فهي من باب فرض الكفاية ، يأثم جميع المسلمين إذا احتاجوا إلى علم كالطب والهندسة مثلاً ولم يوجد بينّهم من يكفيهم أياه ، ثم لا يتحللون من ذلك حتى يسدوا ذلك النقص ، وجعل الرسول ﷺ العلم من الأمور التي يغتبط فيها ، ويتنافس في مضمارها . فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق . ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[2] .

والمراد بالحسد في الحديث الغبطة ، وهي أن يتمنى الإنسان مثل ما عند غيره من غير أن يتمنى زوال النعمة عنه ، وأما الحسد المذموم فهو : أن يتمنى زوال النعمة عن غيره لتكون له ، وقد نهى الرسول ﷺ عنه .

وكان الرسول ﷺ يحض أصحابه على تفهم أمور دينهم ويأمرهم أن يسألوا عما يجهلونه . ويمنعهم أن يفتوا من غير علم ، ومن ذلك ما أخرجه أبو داود بسنده عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟

= الوليد بن مسلم .

قال البوصيري في الزوائد : إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان «راو في السند» وقال السيوطي : سئل الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله عن هذا الحديث فقال انه ضعيف أي سنداً وان كان صحيحاً أي معنى وقال تلميذه المزي هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن وهو كما قال فاني رأيت له خمسين طريقاً وقد جمعتها في جزء ا. هـ كلام السيوطي .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه جـ١ ص٨١ عن أنس .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١/٢٦ ، فضائل القرآن جـ٦ ص١٠٨ عن أبي هريرة .

فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم . ويعصب على جرحه خرقه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده »[1] .

ولم يقتصر حض رسول الله ﷺ لأصحابه على طلب العلم الشرعي من خلال القرآن والسنة الطاهرة ، بل دعاهم إلى كل علم يفيد المسلمين حتى أنه أول ما قدم المدينة ، وسمع من زيد بن ثابت بضع عشرة سورة من القرآن ، وهو صغير السن أعجب به ، وأمره أن يتعلم لغة اليهود فقال : « يازيد تعلم لي كتاب يهود فإني والله ما آمن يهود على كتابي » . وفي رواية أخرى « إني اكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية » . قال زيد فتعلمها في سبعة عشر يوماً »[2] .

وكان من دعاء الرسول ﷺ الذي ورد عنه وكان يقوله كثيراً : « اللهم إني أعوذ من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها [3] .

وبين الرسول ﷺ العلم النافع في ضمن ثلاثة لا ينقطع أجرها بعد موت الإنسان ، فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[4] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه جـ١ ص٨٢ .
(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ ص١١٥ .
(٣) أخرجه مسلم في كتاب الذكر حديث رقم ٧٣ عن زيد بن أرقم .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الوصية حديث رقم ١٥ .

هكذا بين الرسول ﷺ مكانة العلم ، وحض أصحابه والمسلمين جميعاً على طلبه ، ولم يكتف بذلك بل أمر بتبليغه ، فلا فائدة من علم مكتوم ، أو فقه في صدور العلماء لا ينال الناس منه شيئاً .

لذلك أمر رسول الله ﷺ بتبليغ العلم ، وحذّر من كتمانه وذلك في أحاديث كثيرة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع . فرب مبلّغ أوعى من سامع »(١) .

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن سعود : « نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن ، إخلاص العمل لله عز وجل ، وطاعة ذوى الأمر ، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تكون من ورائهم »(٢) .

قال الخطابي : « دعا له بالنضارة وهي النعمة ، يقال نضر ونضر من النضارة وهي في الأصل حسن الوجه والبريق ، وأراد حسن قدره ، وقيل روى مخففاً وأكثر المحدثين يقرأه بالتمثيل والأول الصواب .

والمراد ألبسه الله النضرة ، وهي الحسن وخلوص اللون ، أي جمّله وزينه وأوصله الله إلى نضرة الجنة ، أي نعيمها ونضارتها ، قال ابن عيينه ما من أحد يطلب الحديث إلا في وجهه نضرة لهذا الحديث »(٣) .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب العلم حديث رقم ٢٦٥٧ وقال حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه جـ١ ص٨٤ المقدمة باب من بلغ علماً . والترمذي في كتاب العلم حديث رقم ٢٦٥٨ .

(٣) انظر المرجع السابق في تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي لسنن ابن ماجة .

وكـان ﷺ يأمر الوفود التي تفد إليه أن يحملوا الإسلام إلى من خلفهم ويفقهوهم في الدين وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما قدم عليه وفد عبد القيس روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال : من القوم ؟ أو من الوفد ؟ قالوا : ربيعة . قال : مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا : يارسول الله ، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع . . . وقال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم »[(١)] ولم يتـرك الـرسـول ﷺ طريقـة من طرق التبليغ والأعلام في العصر النبوي إلا استعملهـا في سبيل ذلـك ، فأرسل الرسل ، وبعث الكتب ، ووجه الأمراء والقضاة ، فكان مثالاً طيباً لنشر الرسالة ، وتبليغ الأمانة ، ومنع كتمان العلم .

روى الأمام أحمد في مسنده لسنده عن أبي حريرة ، قال رسول الله ﷺ : من سئل من علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار »[(٢)] .

ثانياً : السنة من حيث أهميتها ومادتها :

السنة هي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة سواء أكـان ذلـك قبـل البعثـة كتحنثه ﷺ في غار حراء أم بعدها[(٣)] .

ومن أهم عوامل حفظ السنة في العصر النبوي أيضاً السنة نفسها من حيث أهميتهـا في التشريع الإسلامي ، ولست هنا في موضع التفصيل التشريعي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإمامة باب أداء الخمس من الإيمان جـ١ ص١٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٢٩٦ .
(٣) انظر السنة قبل التدوين للأستاذ محمد عجاج الخطيب ص١٦ .

للسنة ، ولكن أبين في هذا البحث بإيجاز أهميتها في هذا المضمار والتي جعلت أصحاب رسول ﷺ يحفظونها حفظهم لمصدر تشريعهم ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

فالسنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، لأنها مبينة لكتاب الله تبارك وتعالى ، قال الله عز وجل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[1] .

فإن الله سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن الكريم على رسول محمد ﷺ ، ليكون الأساس الأول للتشريع الإسلامي ، بما يشتمل عليه من الأصول العامة ، والأحكام المجملة ، وهو ﷺ مكلف من الله بأمرين :-

١ - تبليغ ما أنزل عليه من وحي للناس .

قال الله تعالى « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . . . الآية »[2] .

٢ - بيان ما أنزل إليه .

فإن الرسول ﷺ إلى جانب تبليغ وحي الله عز وجل ، وهو القرآن الكريم - وهي المهمة الأولى للرسول ﷺ - عليه أيضاً أن يبين هذه الأصول العامة ، وتلك الأحكام المجملة .

ولا يمكن أن يفهم القرآن على حقيقته ، وأن يعلم مراد الله من كثير من آيات الأحكام فيه إلا بالرجوع إلى رسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه الكتاب

---

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة المائدة : آية رقم ٦٧ .

ليبين للنـاس ما نزل إليهم . ودليل ذلك الآية التي ذكرناها آنفاً ، وهي قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »[1] .

وحتى يكـون لهذا البيان مكانته السامية في نفوس المؤمنين ، واحترامه الكامل بينهم ، نص الله في كتابه الكريم على وجوب طاعة الرسول ﷺ فقال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . . . »[2] .

وجاء الأمر الألهي من الله عز وجل بالالتزام بكل ما أمر به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه فقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[3] .

ولم يبح الله سبحـانه وتعالى للمؤمنين مطلقاً أن يخالفوا حكم الرسول وأوامره فقال الله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخبرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً »[4] .

ومجمل القول أن السنة في الواقع هي التطبيق العملي كما جاء في القرآن الكريم ، أو هي المذكرة التفسيرية والتوضيحية لكتاب الله عز وجل ، تبين ما جاء فيه .

ولبيان ر سول الله ﷺ لكتاب الله الكريم أنواع[5] نفصلها على الوجه التالي : -

(١) سورة النحل : آية رقم ٤٤ .
(٢) سورة النساء : آية رقم ٥٩ .
(٣) الحشر : آية ٧ .
(٤) الأحزاب : آية ٣١ .
(٥) أصول التشريع الإسلامي . لعلي حسب الله ط٥ دار المعارف بمصر ص٤٧-٤٨ .

(أ) تفصيل المجمل :

هناك أحكام مجملة في القرآن الكريم فصلها رسول الله ﷺ وكان تنفيذ المسلمين لهذه الأحكام المجملة متوقفاً على هذا التفصيل منه ﷺ .

ومن هذا أن الله تعالى قد فرض على المؤمنين الصلاة في آيات عدة من القرآن الكريم ، من غير أن يبين مواقيتها ، وأركانها وعدد ركعاتها ، وجاءت السنة العملية فبينت ذلك ، حيث صلى أمامهم رسول الله ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة ، وكل واحدة منها في وقت محدد ، وبهيئات معينة وقال ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي . . . » الحديث[1] .

وقد أمرنا الله عز وجل في كتابه بأن تؤدي زكاة أموالنا فقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[2] وغير ذلك من الآيات ولم يبين سبحانه وتعالى في كتابه ما تجب فيه الزكاة ، ومقدار الواجب .

وجاء الرسول ﷺ فبين المقدار الذي تجب فيه الزكاة ، وما يجب أداؤه في كل نوع من أنواع الأموال المختلفة التي يجب فيها أداء الزكاة .

وورد في القرآن الكريم وجوب الحج من غير بيان لمناسكه ، قال الله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً »[3] فبينت السنة ذلك ، حيث حج الرسول ﷺ أمام الصحابة وعلمهم المناسك ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر يقول لنا خذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي أن لا أحج بعد حجتي هذه »[4] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان ، جـ١ ص١٥٥ ط الشعب ، ضمن حديث طويل عن مالك بن الحويرث ، وأول الحديث أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون . . الحديث .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ٣ ص٣١٨ .

وقد صور هذا النوع من أنواع البيان صحابي جليل هو عمران بن حصين رضي الله عنه ، عندما دعا رجل إلى الاكتفاء بكتاب الله عز وجل ، وترك سنة رسول الله ﷺ ، فقد قال ذلك الرجل لعمران : « حدثوا عن كتاب الله عز وجل ولا تحدثوا عن غيره ، فقال عمران بن حصين رضي الله عنه : إنك امرؤ أحمق ، أتجد في كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها ، وعد الصلوات ، وعد الزكاة ونحوها ثم قال : أتجد هذا مفسراً في كتاب الله ؟ كتاب الله أحكم ذلك ، والسنة تفسِّر ذلك[1] .

(ب) توضيح المبهم :

في آيات الله ألفاظ مبهمة تحتاج إلى توضيح حتى يفهمها المؤمنون فهماً صحيحاً وقد قام رسولِ الله ﷺ بذلك .

ومن هذا قول الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[2] .

عندما نزلت هذه الآية لم يستطع الصحابة رضوان الله عليهم أن يفهموا المعنى الصحيح لكلمة « ظلم » وفهموها فهما غير ما أراده الله تعالى منها . فهموها على أن المراد بها التقصير في أي حق من الحقوق ، ولذلك أصاب كثيراً منهم اليأس وقالوا : أينا لم يظلم ؟ فبين لهم الرسول ﷺ أن المراد بالظلم هنا الشرك ، واستدل على ذلك بقوله تعالى في آية أخرى : (إن الشرك لظلم عظيم) (٣) ، وبهذا انتشلهم الرسول ﷺ من يأسهم ، وردهم إلى الفهم الصحيح لكتاب الله العزيز[4] .

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة لجلال الدين السيوطي ص٦ طبعة ١ ، المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٩٤هـ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٨٢ .

(٣) سورة لقمان : آية ١٣ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبدالباقي جـ١ ص٢٥ طبعة عيسى البابي الحلبي .

(جـ) تخصيص العام :

العـــام هو لفظ وضــع للدلالــة على أفـراد غير محصــورين على سبيل الاستغراق والشمول سواء أكانت دلالته على ذلك بلفظه ومعناه بأن كان بصيغة الجمع كالمسلمين والمسلمات والرجال والنساء ، أم كانت بمعناه فقط كالرهط والقوم ، والجن والإنس .

والخاص لفظ وضع للدلالة على فرد واحد أو أفراد محصورين .

وفي القرآن الكريم أحكام عامة خصصتها السنة النبوية الشريفة ، وذلك مثل قوله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين »[1] فظاهر هذه الآية الكـريمـة أن يعـطى من ميراث كل والـد كل ولد ، للذكر ضعف الأنثى ، وهذا الحكم عام في كل أصل مورث ، وكل ولد وارث .

وجاءت السنة فقصرت الأصل المورّث وخصصته بغير الانبياء لأنهم لا يورثون عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا صدقة » هذا لفظ البخاري[2] ولفظ أحمد وحده عن أبي هريرة قال رسولالله ﷺ (إنا معشر الانبياء لا نورث) .

وقصرت الولد وخصصته بغير القتلة لآبائهم فهم لا يورثون ، أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس لقاتل شيء »[3] .

---

(١) النساء : آية ١١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس جـ٤ ص٤٤ بهذا اللفظ ، وأخرجه أحمد في مسنده جـ٢ ، ٤٦٣ بلفظ آخر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ١ ص٤٩ .

(د) تقييد المطلق :

والمطلق هو مادل على فرد شائع غير مقيد لفظاً بأي قيد ، كحيوان وطائر وتلميذ ، فهـذه ألفاظ وضع كل منها للدلالة على فرد واحد شائع في جنسه والمقيد هو مادل على فرد مقيد لفظاً بقيد ما .

وفي القرآن الكريم أحكام مطلقة قيدتها السنة ، ومن هذا قوله تعالى : مبيناً عقوبة السارق : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم »(١) فلفظ اليد هنـا مطلق لم يقيد بموضع خاص ، وبمقتضى هذا الحكم المطلق تقطع يد السارق كلها ولكن السنة قيدت هذا الحكم حين بين رسول الله ﷺ أن القطع يكون من الرسغ وهو بعض اليد .

وقال تعالى تعقيباً على آية من آيات الميراث ، « من بعد وصية يوصين بها أو دين »(٢) ومعنى هذا أن الوصية تخرج من الميراث مهما كانت نسبتها إلى كله ولكن السنة قيدت الوصية بالثلث ، فإذا أوصى رجل بأكثر من الثلث فإن هذا الوصية تخفض إلى الثلث بمقتضى سنة رسول الله ﷺ .

روى البخاري بسنده عن سعد بن أبي وقاص قال : « جاءنا رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي زمن حجة الوداع ، فقلت : بلغ بي من الوجع ما ترى وأنـا ذو مال ، ولا يرثني إلا إبنة لي أفأصدق بثلثي مالي قال : لا ، قلت : بالشطر قال : لا ، قلت الثلث ، قال : الثلث ، والثلث كثير ، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، ولن تتفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فىُّ أمرأتك »(٣) وفي رواية أخرى : أن سعدا رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : أريد أن أوصي وإنما لي أبنةقلت : أوصي

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٨ .

(٢) سورة النساء : آية ١١ ، ١٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، جـ٧ ، ص٩ .

بالـنـصف ؟ قال النبي ﷺ : النصف كثير ، قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير أو كبير قال سعد : فأوصى الناس بالثلث وجاز ذلك لهم[1]

وبالإضافة إلى هذا البيان منه ﷺ كانت له عليه الصلاة والسلام أحكام سكت عنها القرآن على النحو الذي بيناه ، فلم يذكرها مجملة أو مفصلة أو مبهمة أو عامة أو خاصة أو مطلقة ، أو مقيدة ومن ذلك الأحاديث : تحريمه عليه السلام لحوم الحمر الأهليه[2] ، وكل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير ، وتحريمه نكاح المرأة على عمتها أو خالتها أي الجمع بينهما في عصمته .

الأدلة على أن السنة في هذه الجوانب كلها وحي :

ليس مما يعقـل أو يتصـور أن يكـون النبي ﷺ قد استقل ببيان كيفية العبادات ، أو كمية المقادير الواجبة في مثل الزكاة والصدقات ، أو يكون قد بين عن الله مالم يرده ، أو يكون قد شرع لأمته مالم يأذن به الله ، بل كل أولئك قد أوحاه الله إليه ، وأنزله عليه .

ومن الأدلة النقلية على ذلك :-

صريح قول الله تعالى : (و اذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به »[3] .

وقوله تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »[4].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا باب الوصية بالثلث : جـ٣ ص١٨٧ ، ط . الشعب .
(٢) أصول التشريع الإسلامي : علي حسب الله ص٤٨-٤٩ ط دار المعارف .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٣١ .
(٤) النساء : ١١٣ .

وقوله تعالى : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً »[1] .

قال قتادة وغير واحد كما جاء في تفسير ابن كثير : أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة .[2] .

ولقد جاء النص من السنة على أن السنة مما أوحى إلى النبي ﷺ كالقرآن ، ثم جاء النص على أمور بعينها مما تنفرد السنة بتشريعه :

فقد روى أبو داود بسنده عن المقدام بن معد يكرب ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شعبان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليه أن يقروه ، فإن لم يقروه ، فله أن يعقبهم بمثل قراه »[3] .

وفي رواية الترمذي : ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكيء على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحلناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وأن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله[4] .

قال الخطابي : قوله « أوتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل أحدهما : أن يكون معناه : أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٤ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير في هذه الآية جـ٣ ص٤٨٦ ، وتفسير ابن كثير أيضاً في الآية السابقة ، «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . . » جـ١ ص٤ ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب ما جاء في لزوم السنة ٥/ ١٠ طبعة استنبول ، دار الدعوة .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب العلم حديث رقم ٢٦٦٤ وقال حديث حسن غريب .

ويحتمل أن يكون معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلي ، وأوتي من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب ، ويعم ، ويخص ، وأن يزيد عليه فيشرع ماليس له في الكتاب ذكر ، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن . . » اه[1] .

قال الدكتور محمد الأحمدي أبو النور : في الحديث السابق (ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه) وهو حديث نبوي جامع يفيدنا بما يلي :

١ - أن السنة وحي أو تيه النبي ﷺ مع القرآن .

٢ - التشنيع على من يقتصر على القرآن ويرفض السـنة .

٣ - أن هناك أموراً تنفرد السنة ببيان أحكامها ومن ذلك :-

(أ) تحريم لحم الحمار الأهلي وكل ذي ناب من السباع .

(ب) تحريم لقطة المعاهد - فيجب الاحتفاظ بها لصاحبها كلقطة المسلم - إلا أن يستغنى عنها صاحبها .

(جـ) وجوب إكرام الضيف وإباحة مطالبته من نزل عندهم بحقه في الكرم .

وكل هذه أمور لم ترد في القرآن الكريم نصا بل جاءت إحالة بمثل قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)[2] .

ومن هنا كانت السنة واجبة الاتباع كالقرآن لأنها وحي مثله[3] .

وقد روى أبو داود في مراسيله عن حسان بن عطية قال ، (كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ليعلمه إياها كما يعلمه القرآن) .

---

(١) أنظر معالم السنن للخطابي ، بهامش أبي داود المرجع السابق .

(٢) سورة الحشر : آية ٧ .

(٣) شذرات من علوم السنة ص٢٥ ، للدكتور / محمد الأحمدي أبو النور ، مطبعة نهضة مصر .

ومن هذا كله يتبين لنا أهمية سنة الرسول ﷺ .

فسنة رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير هي من مصادر التشريع الإسلامي الذي لا غنى لكل متشرع من الرجوع إليها .

وسنة رسول الله ﷺ أيضاً هي المادة التي تلقاها الصحابة رضي الله عنهم مع القرآن الكريم وشاركوا في تطبيقها ، واتباعها .

وسنة رسول الله ﷺ تتعلق - فوق ذلك كله - بالمسلمين في جميع أمور حياتهم : في عقائدهم ، وعباداتهم ، ومناسكهم ، وبيوعهم ومعاملاتهم ، وفي أحوالهم الشخصية ، وفي آدابهم ، كما تتصل اتصالاً وثيقاً بمختلف مظاهر حياتهم اليومية في السلم والحرب ، في اليسر والعسر .

والمادة التي تتصف بهذه الصفات تجعل التلميذ متعلقاً بها ، محباً لها حريصاً عليها لأنهاالناظم لأموره وتصرفاته .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على سنة رسول الله ﷺ محبين لها ، يدفعهم إلى ذلك إيمانهم القوي ، وحبهم لمعلمهم الكبير الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وقد سمعوا وعرفوا ما للعلم من فضل ومكانة ، وما للعلماء وطلاب العلم من منزلة ، وأجر ، فأقبلوا على تلقي السنة وتطبيقها من قلوبهم صادقين مخلصين[1] وعنوا بها أجل عناية ، وحافظوا عليها أكمل حفظ ، وحرصوا عليها حرصهم على مصدر تشريعهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة . ويظهر ذلك جلياً في العامل الثالث في حفظ السنة المطهرة في العصر النبوي ، وهو اهتمام الصحابة بسنة رسول الله ﷺ .

(١) السنة قبل التدوين «بتصرف قليل» ص٥٦ للأستاذ / محمد عجاج الخطيب طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة .

العامل الثالث : اهتمام الصحابة بسنة رسول الله ﷺ :

وتحت هذا العامل الهام من عوامل حفظ السنة في العصر النبوي ما يلي :

أولاً - دوافع اهتمام الصحابة بسنة الرسول ﷺ

لم يكن اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بسنة رسول الله ﷺ لمجرد عاطفة تدفعهم إلى أن يتمسكوا بسنة رسول الله ﷺ ، والعض عليها بالنواجذ . وإنما كان اهتمامهم بسنة الرسول لأمور كثيرة أخرى منها :

* أن الصحابة رضي الله عنهم رأوا أن القرآن الكريم يدعوهم إلى أن يكون رسول الله ﷺ القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لهم ، قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1] .
* أن الصحابة رضي الله عنهم رأوا أن الله تعالى جعل طاعة الرسول ﷺ من طاعته فقال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[2] ولن تتحقق هذه الطاعة وتلك القدوة إلا بأن يتبعوا كل ما يأمر به ويسيروا على سنته في جميع الأحوال .
* أن الصحابة رضي الله عنهم وجدوا أن سنة الرسول ﷺ من سبل فهمهم للقرآن الكريم ، وبغيرها يكون فهمهم للقرآن الكريم ناقصاً وفهمهم لدينهم غير كامل لأنهم لا يستطيعون أداء ما عليهم في كتاب الله عز وجل بغير اتباع لسنته ﷺ .
* أن الصحابة رضي الله عنهم رأوا أن السنة تأتي بأحكام جديدة وتستقل ببعض التشريع الذي لا يرد منه نص من كتاب الله عز وجل .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

(٢) سورة النساء : آية ٨٠ .

في كل هذا دوافع قوية دفعت الصحابة رضوان الله عليهم إلى الاهتمام بسنة الرسول ﷺ ، خاصة وقد علمهم الرسول ﷺ أن واجباً عليهم تبليغ الأحكام والشريعة إلى غيرهم .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تسمعون ويُسمع منكم ، ويُسمع من الذين يسمعون منكم »[1] .

كما نبههم ﷺ إلى أنهم سيحتاجون إلى سنته حين تنتابهم أمور لن يجدوا حلها صريحاً في كتاب الله تبارك وتعالى .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا أعرفن أحداً منكم أتاه عني حديث وهو متكيء في أريكته فيقول : أتلوا على به قرآناً ، ما جاءكم عني من خير قلته ، أو لم أقله ، فأنا أقوله ، وما آتاكم عني من شر فأنا لا أقول الشر)[2] .

وفي رواية ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : (لا أعرفن ما يحدث أحدكم عني الحديث وهو متكيء على أريكته فيقول : أقرأ ، ما قيل من قول حسن فأنا قلته)[3]

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها فرب حامل فقه غير فقيه . ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[4] .

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه جـ١ ص٩٥ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وليس له علة ولم يخرجاه وأقره الإمام الذهبي على صحته ، طبعة دار الفكر ، بيروت .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده جـ١ ص٣٦٧ بهذا اللفظ ، طبعة بيروت .

(٣) سنن ابن ماجة جـ١ ص٩ في المقدمة ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، قال البوصيري هذا المتن مما انفرد به المصنف .

(٤) سنن ابن ماجة جـ١ ص٨٦ ، في المقدمة ، طبعة عيسى البابي الحلبي والترمذي في كتاب العلم .

وروى الحديث ابن ماجة أيضاً في نفس الموضع عن أبي بكرة ، قال : خطب رسول الله ﷺ يوم النحر فقال : (ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلغ يبلغه أوعى له من سامع) .

ثانياً - مظاهر اهتمام الصحابة بالسنة :

لقد اتخذ اهتمام الصحابة بالسنة المطهرة مظاهر عدة .

١ - الحرص على حضور مجلس الرسول ﷺ ، والتلقي عنه :

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون كل الحرص على أن يحضروا مجلس الرسول ﷺ ليسمعوا منه ما يقول ، ويرووا ما يصدر عنه لغيرهم ، ولما كانت لهم أعمال تشغلهم بعض الأوقات عن حضور مجلسه ﷺ مما قد يعسر على بعضهم الحضور لكنهم رغم هذه الموانع والشواغل التي قد تحول بينهم وبين ما يشتهون فقد حرصوا على ألا يفوتهم شيء منه ﷺ ، فكانوا يتناوبون في حضور مجالسه ﷺ .

فمن ذلك ما رواه الإمام البخاري بسنده إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه أنه قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك)[١] .

ويقول البراء بن عازب الأوسي رضي الله : « ماكل الحديث سمعناه من رسول الله ﷺ ، كان يحدثنا أصحابنا ، وكنا مشتغلين في رعاية الإبل ، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله ﷺ فيسمعونه من أقرانهم ، وممن هو أحفظ منهم ، وكانوا يشدِّدون على من يسمعون منه »[٢] .

(١) صحيح الإمام البخاري جـ١ ص٣٣ طبعة دار الشعب بالقاهرة .

(٢) انظر كتاب معرفة علوم الحديث للإمام الحاكم أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ النيسابوري ، طبعة منشورات المكتب التجاري ، للطباعة والتوزيع ، بيروت ص١٤ .

وفي راوية عن البراء بن عازب أيضاً : أنه قال : « ليس كلنا كان يسمع حديث رسول الله ﷺ كانت لنا ضيعة وأشغال ولكن الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ فيحدث الشاهد الغائب »[1] .

ولم يكن النساء بأقل من الرجال حرصاً على حديث رسول الله ﷺ فكان للنساء أيضاً أثر عظيم في حفظ السنة وتبليغها لا يقل عن أثر الصحابة رضي الله عنهم ، فكن يحرصن أيضاً على حضور مجالس الرسول ﷺ إذا ما رأين الرجال قد غلبوهن على رسول الله ﷺ ، طلبن منه أن يعين لهن جلسات خاصة بهن يسألنه فيها عن أمورهن ويتعلمن أحكام الإسلام .

فقد روى الأمام البخاري بسنده في صحيحه في كتاب باب هل يجعل للنساء يوماً على حده في العلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال النساء : للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن : ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنين فقال واثنين »[2] .

وأخرج الإمام البخاري أيضاً في كتاب العلم باب عظة الإمام النساء وتعليمهن بسنده عن أيوب قال سمعت عطاء قال سمعت ابن عباس قال : أشهد على النبي ﷺ أو قال عطاء: أشهد على ابن عباس أن رسول ﷺ خرج ومعه بلال ، فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه .

---

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ص٣٢ للرامهرمزي ، طبعة دار الفكر ، بيروت .
(٢) صحيح الإمام البخاري ، جـ١ ص٣٤ ، ط دار الشعب .

ثم قال الإمام البخاري : وقال إسماعيل عن أيوب عن عطاء وقال عن ابن عباس أشهد على النبي ﷺ[1] .

وكان النساء يسألن رسول الله ﷺ فيجيبهن عن أمور دينهن ولم يكن ذلك صدفة أو نادراً بل - كما ذكرنا بالدليل من قبل - لأن الرسول ﷺ خصص لهن أوقاتاً خاصة ، لحرصهن على حديثه والسماع منه ، يجلس فيها إليه ، ويتلقين عنه تعاليم الإسلام ، ويفتيهن ، قالت عائشة رضي الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين »[2] .

بل كان النساء لحرصهن يسألهن الرسول ﷺ عن أخص خصائصهن فقد روى الإمام البخاري بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله : إن الله لا يستحي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا هي احتملت ؟ قال النبي : إذا رأت الماء . فغطت أم سلمة - تعني وجهها ، وقالت : يارسول الله ، أو تحتلم المرأة ؟ قال : نعم . تربت يمينك ، فبم يشبهها ولدها ؟ ![3] .

وكان لأمهات المؤمنين فضل عظيم في تبليغ الدين ونشر السنة بين نساء المسلمين فقد كان بعض النساء يخجلن من أن يسألن رسول الله ﷺ عن أمورهن فيجدن عند أزواجه ما يشفي غليلهن ، لأنهن على صلة دائمة به ، يتعلمن منه الأحكام ، وينقلن عنه مالا يتاح لغيرهن نقله ، وقد اشتهرت السيدة عائشة رضي عنها بعلمها الغزير ، وحرصها على فهم الأحكام ، وقد عرف المسلمون سمو مكانتها وتعمقها في أحكام الأسلام فكانت محط أنظار طلاب العلم خاصة بعد وفاة الرسول ﷺ .

(١) صحيح الإمام البخاري جـ١ ص٣٣ .
(٢) صحيح الإمام البخاري ، كتاب العلم باب الحياء في العلم جـ١ ص٤١ .
(٣) المرجع السابق نفس الكتاب والصفحة .

كما أن النساء كن يشهدن بعض المواسم كصلاة العيد ، ويستمعن إلى أحاديث رسول الله ﷺ ، وقد كان لهؤلاء الصحابيات أثر عظيم في حمل أحكام كثيرة تتعلق بالنساء وحياتهن الزوجية ، كان من الصعب أن يسأل الصحابة عنها رسول الله ﷺ[١] .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتذاكرون دائماً ما يسمعون من رسول الله ﷺ ، قال أنس بن مالك : كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه .

« وإلى جانب حضـور الصحـابـة مجالس رسول الله ﷺ كان الصحابة يتلقون السنة من وجوه أخرى يمكن حصرهما فيما يلي : -

* حوادث كانت تقع للرسول ﷺ نفسه فيبيّن حكمها وينتشر هذا الحكم بين المسلمين بمن سمعـوه منه ، وقد يكون هؤلاء كثرة تمكنهم كثرتهم من إذاعـة الخبـر بسـرعة ، وقد يكونون قلة فيبعث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، من ينادي في الناس بذلك الحكم .

مثال ذلك مارواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأدب بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ النبي ﷺ ، وفي البيت قرام[٢] فيه صور فتلوَّن وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، وقالت ، قال النبي ﷺ : من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور[٣] .

---

(١) أنظر السنة قبل التدوين ٦٩ ، ٧٠ بتصرف للأستاذ / محمد عجاج الخطيب ، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) القرام : الستر الرقيق ، وقيل الصفيق من صوف ذي ألوان ، أنظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ٤ ص٤٩ طبعة المكتبة الإسلامية .

(٣) صحيح الإمام البخاري جـ٧ ص٩٨ ، طبعة دار الشعب .

وقد يرى الرسول ﷺ أو يسمع صحابياً يخطيء فيصحح له خطأه ويرشده ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخبره أنه رأى رجلاً توضأ للصلاة فترك موضع ظفر على قدمه ، فأبصره النبي ﷺ فقال : إرجع فأحسن وضوءك ، فرجع فتوضأ ثم صلي[1] .

* حوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول ﷺ عنها فيفتيهم ويجيبهم ، مبيناً حكم ما سألوا عنه ، من هذه الحوادث ما يتناول خصوصيات السائل نفسه ، ومنها ما يتعلق بغيره وجميعها من الوقائع التي تعرض للإنسان في حياته ، فنرى الصحابة لا يخجلون في ذلك كله ، بل يسرعون إلى المعلم الأول ﷺ ، ليقفوا على حقيقة تَطمئنّ قلوبهم إليها ، وتثلج صدورهم عندها ، وقد يخجل الصحابي من الرسول ﷺ ، فيكلف غيره عبء السؤال ، من ذلك ما يرويه الإمام مسلم بسنده عن علي بن أبي طالب قال : كنت رجلاً مذاء[2] ، فكنت استحي أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته فأمرت المقداد بن الأسود ، فسأله فقال : يغسل ذكره ويتوضأ[3] .

وكان الصحابة يسألون الرسول عن أمورهم وأحوالهم ، لا يحجبهم عنه حاجب ولا يمنعهم منه مانع ، لذلك نرى الأعرابي البعيد يسأله كما يسأله الصحابي الملازم له ، كلهم يريدون الحق ، قال الإمام على رضي الله عنه ، جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إنا نكون بالبادية فتخرج من

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ١ ص٢١ طبعة بيروت .

(٢) مذَّاء : أي كثير المذي ، والمذي ماء أبيض رقيق لزج يخرج عند شهوة لا بشهوة ودفق ، ولا يعقبه فتور وربما لا يحس بخروجه ويكون ذلك للرجل والمرأة وهو في النساء أكثر منه في الرجال ، صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي جـ١ ص٢٤٧ طبعة بيروت .

(٣) نفس الجزء والصفحة في المرجع السابق .

أحـدنـا الـرويْحـة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لا يستحي من الحق ، إذا فعل أحدكم فليتوضأ ، ولا تأتون النساء في أعجازهن »[1] .
والرويحة : تصغير رائحة ، وكنيَّ بها هنا عن الريح الذي ينطلق من البطن عن طريق الشرج .

إن هؤلاء الصحـابـة الـذين يسألون الرسول ﷺ ، عن مثل هذه الأمور الشخصية التي قد يخجـل منهـا غيرهم ، كانـوا لا يحجبـون عن سؤاله في معاملاتهم وعباداتهم وعقائدهم وسائر أمورهم . بل أن بعضهم كان إذا وصله خبر عن رسول الله ﷺ ، يعود إليه لينهل من معينه ويتزود من علمه ، وكان الرسول ﷺ يجيبهم ويفتيهم .

وفي هذه الأجوبة والفتاوي مادة كثيرة في مختلف أبواب كتب السنة حتى أنها تؤلف جانباً كبيراً من سنة رسول الله ﷺ ، ويبعد أن ينسى هذه الحوادث من وقعت له ، وسأل عنها رسول الله ﷺ ، لأنها جزء من حياة النسائل بل واقعة بارزة من وقائع عمره .

* وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول ﷺ :

وهذه كثيرة في صلاته ، وصيامه ، وحجه ، وسفره ، وإقامته ـ . . . . . إلخ فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها إلى من بعدهم ، وهي تؤلف جانباً كبيراً من السنة ، وخاصة هديه ﷺ في العبادات والمعاملات وسيرته »[2] .

من ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عبيد بن جريح أنه قال : لعبد الله بن عمر ياأبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعاً لم أر من أصحابك من يصنعها ، قال : ماهن ياابن جريج قال : رأيتك لا تمس من الأركان إلا

(١) أخرجه أحمد في مسنده جـ٢ ص٦٤ .
(٢) أنظر : السنة قبل التدوين ٦١-٦٦ بتصرف .

اليمانيين ورأيتك تلبس النعال السبتية[1] ورأيتك تصبغ بالصفرة ، ورأيتك إذا كنت بمكة أهلَّ الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلل . أنت تكون يوم التروية ، فقال عبد الله : أما الأركان فإني لم أر رسول الله ﷺ يمسُّ إلا اليمانيين ، وأما النعال السبتية فأني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فأنا أحب أن ألبسها ، وأما الصفرة : فأني رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بها ، وأما الإهلال : فأني لم أر رسول الله ﷺ يهل حتى تنبعث به ناقته[2] .

٢ - احتياط الصحابة في رواية الحديث والتثبيت والتأكد من صحته :

إن من أهم مظاهر اهتمام الصحابة بالسنة أيضاً مبالغتهم في الاحتياط في رواية الحديث ، والتثبيت والتأكد من صحته ، خشية الوقوع في الخطأ وحتى لا يتحملوا من السنة إلا ما تطمئن له قلوبهم وتستريح له وجدانهم وخوفاً من أن يتسرب إلى سنة رسول الله ﷺ الكذب ، أو التحريف وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم .

لهذا اتبع الصحابة رضي الله عنهم كل سبيل يحفظ على الحديث نوره ، وقد اتخذت حيطتهم هذه عدة وجوه منها :

(أ) الاعتدال في الرواية :

فقد آثر الصحابة رضي الله عنهم الاعتدال في الرواية عن رسول الله ﷺ ، بل أن بعضهم فضَّل الاقلال منها ، قال ابن قتيبة « وكان كثير من جُلَّة الصحابة

---

(١) السبت : بكسر السين وتشديدها ، جلود البقر المدبوغة بالقرظ يتخذ منها النعال ، سميت بذلك لأن شعرها قد سبت عنها : أي حلق وأزيل ، وقيل لأنها انسبتت بالدباغ أي لانت . النهاية في غريب الحديث جـ٣ ص٣٣٠ .

(٢) أخرجه في مسنده جـ٢ ص٦٦ .

وأهل الخاصة برسول الله ﷺ كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب ، يقلون الرواية عنه ، بل كان بعضهم لا يكاد يرون شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة »[1] .

والتزم الصحابة رضي الله عنهم منهاج عمر بن الخطاب ، واتقنوا أداء الحديث وكانوا يخشون كثيراً أن يقعوا في الخطأ لذلك نرى بعضهم - مع كثرة تحملهم عن الرسول ﷺ - لا يكثر من الرواية - ونرى من تأخذه الرِّعدة ويقشعر جلده ، ويتغير لونه ورعا واحتراماً لحديث رسول الله ﷺ . ومن ذلك مارواه عمرو بن ميمون قال : « ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه ، قال : فما سمعته يقول بشيء قط ؟ « قال رسول الله ﷺ » فلما كان ذات عشية قال : « قال رسول الله ﷺ ، قال : فنكس ، قال : فنظرت إليه فهو قائم محلله أزرار قميصه ، قد أعز ورقت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، قال : أو دون ذلك ، أو فوق ذلك ، أو قريباً من ذلك ، أو شبيها بذلك »[2] .

وجالس الشعبي ابن عمر سنة فما سمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ شيئاً[3] .

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ حديثاً ، ففرغ منه ، قال : أو كما قال رسول الله ﷺ[4] .

وروى ابن ماجة أيضاً في سننه بسنده عن قرظة بن كعب قال : « بعثنا عمر ابن الخطاب إلى الكوفة ، وشيَّعنا فمشى معنا إلى موضع يقال له صرار ،

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٤١-٤٢ ، مطبعة دار الكتب العلمية . بيروت .
(٢) سنن ابن ماجة جـ١ ص١١ قال البوصيري في الزوائد : اسناده صحيح احتج الشيخان بجميع رواته .
(٣) المرجع السابق جـ١ ص١٢ .
(٤) المرجع السابق جـ١ ص١١ .

فقال : أتدرون لِم مشيتُ معكم ؟ قال : قلنا : لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار ، قال : لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به ، فأردت أن تحفظوه لمشي معكم ، إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل ، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم وقالوا : أصحاب محمد . فأقِلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم[1] .

وعن عبد الله بن الزبير ، قال : قلت للزبير بن العوام : مالى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما أسمع ابن مسعود وفلاناً وفلاناً ؟ قال : أما أني لم أفارقه منذ أسلمت ولكني سمعت منه كلمة يقول : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[2] .

« هكذا تشدَّد الصحابة في الحديث وأمسك بعضهم عنه كراهية التحريف أو الزيادة والنقصان في الرواية عن الرسول ﷺ ، لأن كثرة الرواية كانت في نظر كثير منهم مظنة الوقوع في الخطأ ، والكذب على رسول الله ﷺ ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الكذب عليه وعن رواية ما يرى أنه كذب .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يخشون الوقوع في الكذب عامة ، فكيف يكذبون على رسول الله ﷺ ؟ .

ذلكم طريقة الصحابة ومنهجهم في المحافظة على حديث رسول الله ﷺ ، خشية الوقوع في الخطأ ، أو تسرب الدس إلى الحديث الشريف من الجهلاء ، وأصحاب الأهواء ، أو أن تحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب فيكون الحكم بخلاف ما أخذ به ، فعلوا ذلك كله احتياطا للدين ورعاية لمصلحة المسلمين ، لا زهداً في الحديث النبوي ولا تفضيلا

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص١٢ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص١٤ .

له . فلا يجـوز لإنسـان أن يفهمم من منهاج الصحابة ، ومن تشدُّد - عمر خاصة - هجر الصحابة للسنة أو زهدهم فيها ، معاذ الله أن يقول هذا إلا جاهل أو صاحب هوى ، لا علم له بقليل من السنة ، ولم تخالط قلبه روح الصحابة ، ولا أنـار سبيله قبس من هداهم . فقـد ثبت عن الصحـابة جميعاً تمسكهم بالحديث الشريف ، وأجلالهم إياه ، وأخذهم به .

قال الإمام الشهرستاني في الملل والنحل : إن العلم قد حصل بالتواتر أن الصحابة إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام فزعوا إلى الاجتهاد ، وايتدأوا بكتاب الله تعالى ، فإن وجدوا فيه نصاً أو ظاهراً فزعوا إلى السنة فإن روى لهم في ذلك خبر أخذوا به ، ونزلوا على حكمه وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد[1] .

(ب) التشدّد مع أنفسهم في حفظ الحديث وأدائه :

كان الصحـابـة رضي الله عنهم مع اعتدالهم في الرواية ، أو تفضيلهم الأقلال منها عن رسول الله ﷺ - كما سبق أن بينا - كانوا مع هذا يتشدَّدون مع أنفسهم في حفظ الحـديث . فكـان لا يملّ أحدهم أن يسمع الحديث من رسول الله ﷺ أكثر من مرة ، ويرى بعضهم أنه لا يحدث بالحديث إلا سمعه أكثـر من ثلاث مرات ، يقـول عمرو بن عنبسة بعد حديث حدَّثه لقد كبرت سني ، ورق عظمي ، واقترب أجلي ومابي حاجة إلى أن أكذب على الله ولا على رسول الله ﷺ ، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبع مرات ما حدثت به أبداً ، ولكني سمعته أكثر من ذلك[2] .

---

(١) الملل والنحل ، للشهرستاني ص٢٠٨ ، مطبعة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى .

(٢) أنظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب اسلام عمرو بن عنبسة ، جـ١ ، حديث رقم ٢٩٤ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

كما حرص الصحابة رضي الله عنهم على أن يؤدوا أقواله ﷺ كما صدرت منـه ، نقية غير مشـوبة وغير محرفة أدنى تحريف فاتخذوا الحيطة في حفظ الحديث وفي سماعه خاصة بعد ما سمعوا رسول الله ﷺ يقول لهم محذراً من الكذب عليه : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »(١) .

يقول سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه : « ما يمنعني أن أحدث عن رسول الله ﷺ ألا أكون أوعى أصحابه عنه ولكني أشهد لسمعته يقول : « من قال على مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار »(٢) .

ويقول الإمام على كرم الله وجهه مبيناً مقدار التبعة التي كانوا يلزمون بها أنفسهم في أداء الحديث : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أقول عليه مالم يقل »(٣) .

(جـ) التثبت في قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ :

كما احتاط الصحابة رضي الله عنهم في سماع الحديث وأدائه عن رسول الله ﷺ ، فقد احتاطوا وتثبّتوا في قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ ، حتى لا يتحمّلوا من ذلك إلا ما تطمئن له نفوسهم وتستريح له قلوبهم .

ويوضح هذا قول البراء بن عازب رضي الله عنه « ما كل الحديث سمعناه من رسـول الله ﷺ كان يحـدثنـا أصحـابنـا وكنا منشغلين في رعاية الأبل ، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله ﷺ ، فيسمعـونـه من أقـرانهم ، وممن هو أحفظ منهم ، وكـانوا يشددون على ما يسمعون منه »(٤) .

(١) الحديث سبق تخريجه .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١ ص٦٥ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج ، جـ٢ حديث رقم ١٥٤ .
(٤) أنظر كتاب «معرفة علوم الحديث» للإمام الحاكم ص١٤ ، مطبعة دار إحياء العلوم ، بيروت .

ومن مظاهر التشدد والتثبت في قبول الأخبار :

* أنهم كانوا يستحلفون رواى الحديث لهم عن رسول الله ﷺ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني غيره استحلفته ، فإذا حلف لي صدّقته ، وإن أبا بكر حدثني ، وصدق أبو بكر أنه سمع النبي ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصلي لله ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له »[1] .

قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري : وأما أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فكان إذا فاته عن رسول الله ﷺ حديث ثم سمعه من غيره يحلف المحدث به .

وقد روى علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، حديثاً عن رسول الله ﷺ ، فقام إليه عبيدة السلماني[1] فقال : ياأمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، فقال : أي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له »[3] .

* **أنهم كانوا يطلبون لقبول الحديث من الراوي شهادة الغير له :**

فقد طلب الخليفة الأول أبو بكر الصديق من الراوي شاهداً حتى يتثبت في قبول الخبر الذي رواه عن رسول الله ﷺ ، خشية أن يقع ، ويقع المسلمون في الخطأ من ذلك ما روى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ١ ص٢ .

(٢) عبيدة بن عمرو السلماني أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ولم يلقه تابعي ثقة ، وكان من أصحاب الإمام علي ، أنظر تهذيب التهذيب لابن حجر جـ٧ ص٨٤ مطبعة دار صادر ، بيروت .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزكاة جـ٢ حديث رقم ١٥٦ .

إلى أبي بكر تلتمس أن تورث ، فقال : ما أجد لك في كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال : سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : سمع ذلك معك أحد ؟ فقام محمد بن سلمة فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، يعطيها السدس ، فأنفذ ذلك لها أبو بكر رضي الله عنه[1] .

وكذلك طلب سيدنا عمر بن الخطاب الخليفة الثاني من راوي الحديث . من يشهد له أنه سمع ذلك من رسول الله ﷺ .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : كنت في مجلس من مجالس الأنصار ، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي ، فرجعت فقال : ما منعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول الله ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » فقال - عمر - والله لتقيمن عليه ببينة - ثم قال أبو موسى : أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ ؟ فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك ألا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم ، فقمت معه ، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك[2] فقال عمر لأبي موسى : أما أني لم اتهمك ولكن خشيت أن يتقوَّل الناس على رسول الله ﷺ[3] .

هذه آثار تبين منهج الصحابة في التثبت والتأكد من الأخبار ، هذا لا يعني أبداً أن الصحابة رضي الله عنهم اشترطوا لقبول الحديث أن يرويه راويات فأكثر ، أو أن يشهد الناس على الراوي ، أو أن يستحلف ، فإذا لم يحصل شيء من هذا رد خبره ! ولم يكن طلب البينة أو استحلاف الراوي على صحة

(١) معرفة علوم الحديث ص١٥ وأخرجه الإمام مالك في الموطأ جـ٢ ص٥١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه جـ٧ ص١٣٠ طبعة الشعب .

(٣) موطأ الإمام مالك جـ٢ ص٩٦٤ وفي روايته أن عمر قال : لئن لم تأتني بمن يعلم هذا لأفعلن بك كذا وكذا .

الحديث في كل الحالات من أجل الشك في المروي أو اتهام الراوي بل كان الصحابة يتثبتون في قبول الأخبار ، بدليل قول عمر نفسه لأبي موسى - كما مر - أما أني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقوّل الناس على رسول الله ﷺ .

وبدليل : قبول الصحابة رضي الله عنهم أحاديث كثيرة برواية الآحاد ، عملوا بها وبنوا عليها أحكامهم مما يدل على أنهم رضي الله عنهم كانوا يطلبون الراوي الثاني لمجرد التثبت والتأكد ، لا لأن الخبر لا يثبت عندهم إلا براويين .

فالأخبار التي قبلها الخلفاء الأربعة ، وغيرهم ، براوية الآحاد أكثر بكثير من الأخبار التي طلبوا فيها راويين .

وليس هذا مجال للتفصيل وضرب الأمثلة الكثيرة في ذلك فليس هذا موضوع البحث ، ولكني أحببت أن أنبه إلى هذا وأشير إليه إشارة خفيفة في هذا الموضع .

٣ - كتابة الحديث النبوي :

ومن اهتمام الصحابة بالسنة النبوية كتابتهم للحديث النبوي ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أنه ورد في كتب السنة أحاديث عن النبي ﷺ تنهى عن كتابة الحديث ، كما ورد أحاديث أخرى تأذن وتسمح للبعض بكتابتها « والحقيقة أنه لا تناقض هناك بين أحاديث النهي والإذن بالكتابة ، إذ الرأي الراجح أن المنع كان للاحتياط في باديء الأمرين أن يختلط القرآن بالحديث ولتوجيه اهتمام المسلمين كلية للقرآن فلا يشغلهم الحديث عنه ، فلما اطمأن النبي ﷺ إلى أن الصحابة حفظوا القرآن ووعوه في صدورهم ، وأنهم دونوه كله في سطورهم أذن بكتابة الحديث لجماعة من صحابته لظروف معينة ولأشخاص يتقنون الكتابة »[1] .

---

(١) الأحاديث النبوية والمحدثون ص١٨ للمؤلف محمد إسماعيل إبراهيم ، طبعة دار الفكر العربي .

وقال الصنعاني : نحو ذلك حيث قال : إن النهي عن الكتابة إنما كان في أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن فلما كثر عدد المسلمين وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة وميزوه عن الحديث زال هذا الخوف عنهم فنسخ الحكم الذي كان مترتباً عليه وصار الأمر إلى الجواز[1] .

وذكر العلماء عدة آراء أخرى في هذا الشأن يفهم منها أن الرسول ﷺ لم يفارق الدنيا إلا وكتابه الحديث مأذون فيها ، وانتهى أمر الرسول ﷺ بإباحه الكتابة[2] .

وقد ترك عدد من الصحابة والتابعين صحف أهمها :

١ - صحيفة عبد الله بن عمرو وسماها « الصحيفة الصادقة » وقد أقره الرسول ﷺ عليها وعددها ألف حديث[3] .

٢ - صحيفة أبي هريرة لهمام بن منبه وسماها « الصحيفة الصحيحة »[4] .

٣ - صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري[5] .

ومن هذا التوضيح الموجز يظهرلنا أن سنة الرسول ﷺ قد دونّت في عهده إلا أنه كان تدوينا ذاتياً وفردياً ومجهوداً شخصياً .

ثم تبنت الدولة التدوين رسمياً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد كتب إلى قاضية بالمدينة « أبى بكر بن حزم » انظر ما كان من حديث رسوا الله ﷺ فاكتبه فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » ولقد انفذ ابن حزم

(١) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار لمحمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني . مكتبة الخانجي الطبعة الأولى .

(٢) السنة قبل التدوين ص٣٠٩ .

(٣) السنة قبل التدوين ص٣٤٨ .

(٤) الحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهو ص١٢٥ .

(٥) السنة قبل التدوين ص٢١٥ .

ماعنده ، ولكنه لم يدون كل ما في المدينة من سنة ، والذي نقل ذلك هو الأمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) .

وشاع التدوين في الجيل الذي ولي الزهري وكان أول من جمعه بمكة : عبد الله بن جريج (ت ١٥٠هـ) ، وابن اسحاق (ت ١٥١هـ) ، وبالمدينة : الامام مالك (ت ٥١٧٩هـ) ، وبالبصرة : حماد بن سلمة (ت ١٧٦هـ) ، وبالكوفة : سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) ، وبالشام : أبو عمر الأوزاعي (ت ١٥٦هـ)[1] .

وفي القرن الثالث الهجري كان القرن الذهبي للسنة النبوية حيث وهب أصحاب الكتب الصحاح أنفسهم لهذا العمل الجليل ، فكان البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ومسلم (ت ٢٦١هـ) ، وأبو داود (ت ٢٧٥هـ ٠ ، وابن ماجة (ت ٢٧٥هـ) ، والترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، والنسائي (ت ٣٠٣هـ) ثم انصرفت العناية بعد ذلك إلى تصحيح هذه الكتب والنظر في اسانيدها . وهذا الموضوع - كتابة الحديث النبوي - يحتاج إلى بحث آخر نبسط فيه القول ولكن ما ذكرته هنا بإيجاز .

٤ - الرحلة في طلب الحديث :

ومن مظاهر اهتمام الصحابة لسنة رسول الله ﷺ ، ورغبتهم في تقصي كل ما حدث به ما وسعهم ذلك أن الواحد منهم كان إذا بلغه الحديث عن رجل آخر غيره ، رحل إليه ولو تجشم في ذلك الصعاب ، ليأخذه عنه من غير واسطة لأن ذلك يكون أقرب إلى الصحة ، وأدعى إلى القبول ، وحفظاً لسنة رسول الله ﷺ .

---

(١) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي جـ١ ص٢٧٧ ، ٢٧٨ طبعة ٢ دار الكتاب العربي .

فهذا هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري يسافر شهراً في طلب حديث واحد عرف أن صحابياً آخر سمعه من رسول الله ﷺ ، ولم يسمعه هو من الرسول ﷺ « فعن محمد بن عقيل بن أبي طالب أن جابر بن عبد الله حدثه قال : بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ولم أسمعه منه ، قال : فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلى فسرت إليه شهراً حتى أتيت الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري قال : فأرسلت إليه أن جابراً على الباب .

قال : فرجع إليَّ الرسولُ فقال : جابر بن عبد الله ؟

فقلت : نعم .

قال : فرجع الرسول إليه ، فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته .

قال : قلت : حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه ، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ! .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشُرُ الله العباد ، أو قال : يحشر الله الناس - قال وأو مأبيده إلى الشام - عراة غرلاً[1] بهما » .

قلت : ما بهما ؟ . قال : ليس معهم شيء !

قال : فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قربُ : « أنا الملك أنا الديان[2] لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة واحد من النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة » .

قال : قلنا : كيف هو ، دائماً نأتي الله تعالى غرلاً بهما ؟ !

---

(١) غرلا : جمع أغرل : وهو الأقلف (أي الذي لم يختن) أنظر النهاية في غريب الحديث جـ١ ص٣٦٢ ، طبعة المكتبة الإسلامية .

(٢) الريان : قيل هو القهار ، و قيل هو الحاكم والقاضى وهو فعَّال ، من دان الناس : أي قهرهم على الطاعة . النهاية في غريب الحديث جـ١ ص ١٤٨ .

قال : بالحسنات والسيئات[1] .

وكذلك رحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر من أجل حديث واحد سمعه عقبة بن عامر بن الرسول ﷺ ولم يسمعه هو فقد حدث الخطيب البغدادي فقال أخبرنا أبو نعيم الحافظ ثنا محمد بن أحمد بن الحسن ثنا بشر بن موسى ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا ابن جريج قال : سمعت أبا سعد الأعمى يحدث عطاء ابن أبي رباح قال : خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم إلى منزل مسْلمة بن مُخلَّد الأنصاري ، وهو أمير مصر ، فأخبر به فعجل فخرج إليه فعانقه ، وقال : « ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ » قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري ، وغير عقبة ، فابعث من يدلني على منزله ، قال : فبعث معه من يدله على منزله عقبة ، فأخبر عقبة به ، فعجل فخرج إليه ، فعانقه ، وقال : « ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ » فقال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن

قال عقبة بن عامر : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر مؤمناً على خُرْبة - أي سوءة أو معصية فعلها ولم يفضحه - ستره الله يوم القيامة » .

فقال له أيوب : « صدقْتَ » ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده جـ٣ ص٤٩٥ والبخاري في الأدب المفرد باب المعانقة جـ٢ ص٤٣٣ وذكره في صحيحه جـ١ ص٢٢ تعليقاً بصيغة الجزم ، وأخرجه الحاكم في المستدرك في موضعين جـ٢ ص٤٢٧ - ٤٢٨ ، جـ٤ ص٥٧٤-٥٧٥ وصححه في الموضعين ، وصححه الذهبي أيضاً .

(٢) حديث أبي أيوب أخرجه مطولاً من طريق سفيان الإمام الحميدي في مسنده برقم ٣٨٤ ، والإمام أحمد -لكن مختصراً- جـ٤ ص١٥٣ ، ص١٥٩ ، وأخرجه الخطيب البغدادي أيضاً مختصراً من وجه آخر عن سفيان عن ابن جريج قال سمعت شيخاً من أهل المدينة يحدث عطاء =

ولم تقتصر الرحلة في طلب الحديث على الصحابة وحدهم بل رحل التابعون واتباع التابعين ومن بعدهم من أجل حديث رسول الله ﷺ ، ومن يراجع تاريخ أئمة الحديث كالبخاري ومسلم ، وأصحاب السنن يرى أن لكل منهم رحلات طوالاً ، تحملوا مشقاتها ، ووعثاءها من أجل أن يسمعوا الكثير من حديث رسول الله ﷺ مما كان له أكبر الأثر في حفظ سنة رسول الله ﷺ

وهذا الموضوع يحتاج إلى بحث آخر نبسط فيه هذا الموضوع أن شاء الله .

*** الخاتمة :**

في هذا البحث اتضح لنا أن السنة في العصر النبوي قد حفظت وتضافر في سبيل حفظ السنة في العصر النبوي عوامل أهمها :-

شخصية الرسول ﷺ فقد وهب الله رسوله ﷺ خلقاً عظيماً ، كما ذكر الله سبحانه في كتابه حيث قال : « وإنك على خلق عظيم »(1) وكان هذا من أهم إقبال الناس عليه ، وأعطاه الله من العلم مالم يعط سواه قال تعالى : « وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »(2) فأقبل المسلمون عليه ينهلون من علمه - وسنة رسول الله ﷺ - التي أدرك الصحابة رضي الله عنهم

= أن أبا أيوب رحل إلى مصر. . . » في كتاب الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ق٢٤٤ب .
وفي سند الحديث أبو سعد المكي الأعمى مجهول لم يروعنه إلا ابن جريج ، لكن الحديث اعتضد بوروده من أوجه كثيرة جداً أخرج الخطيب جملة منها وكلها لم تخل من المقال لكنها تقوى الحديث ، ويرتقى بها إلى درجة الحسن ويوجد مزيد من الطرق في مجمع الزوائد جـ١ ص١٣٤ . أنظر كتاب الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي تعليق وتحقيق نور الدين عتر ص ١١٩ ، ١٢٠ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

(1) سورة القلم : آية رقم ٥ .

(2) سورة النساء : آية رقم : ١١٣ .

أهميتها ، . وأنها تبين كتاب الله عز وجل فأقبلوا عليها يحافظون عليها حفظهم لأنفسهم – واهتمام الصحابة رضي الله عنهم بسنة الرسول ﷺ ، فإن الصحابة رضي الله عنهم لما عرفوا أهمية سنة نبيهم ، وأنها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد كتاب الله تبارك وتعالى دفعهم ذلك إلى الاهتمام بها ، والمحافظة عليها ، لأنهم علموا أنهم بذلك يحافظون على مصدر من مصادر تشريعهم ، فاعتنوا بحفظ الأحاديث ، واحتاطوا وتثبتوا في قبول الأخبار وأدائها ، فكانوا لا يحدثون بشيء عن رسول الله ﷺ إلا وهم واثقون من صحة ما يروون ، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تفضي إلى ذلك ، فاتبعوا منهجاً سليماً يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها . وكذلك حرص الصحابة على كتابة الحديث ، واجتهدوا في طلبه ورحلوا من أجله .

وهذا كله كان له الأثر الكبير في حفظ الصحابة لسنة رسول الله ﷺ ، دقيقها وجليلها ، ثم نقلها إلى التابعين الذين نقلوها إلى من بعدهم ، طبقاً لما قاله ﷺ لأصحابه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : تسمعون ويُسمع منكم ويُسمع ممن سمع منكم »[1] .

ويمكننا أن نقول – ونحن واثقون – أن السنة في عهد رسول الله ﷺ ، كانت محفوظة عند الصحابة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم وإن كان نصيب كل صحابي منها يختلف عن نصيب الآخر ، فمنهم المكثر من حفظها ، ومنهم المقل ، ومنهم المتوسط في ذلك ، ومن ثم نستطيع تأكيد أنهم قد أحاطوا بالسنة وتكلفوا بنقلها إلى التابعين .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم حديث رقم ٣٦٥٩ – طبعة دار الدعوة ، استانبول .

ويخطيء من يدّعى أن بعض السنن فات الصحابة جميعاً بعد أن رأينا مدى عنايتهم بها ، وحرصهم عليها ، فكيف يغيب عنهم شيء منها ، وهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ نيفا وعشرين عاماً ، قبل الهجرة وبعدها فحفظوا عنه أقواله ، وأفعاله ، ونو مه ، ويقظته ، وحركته ، وسكونه ، وقيامه وتعوذه ، واجتهاده ، وعبادته ، وسيرته وسراياه ، ومغازيه ، ومزاحه وزجره وخطبه وأكله وشـربه ، ومعاملته أهله ، وتأديبه فرسه ، وكتبه إلى المسلمين والمشركين ، وعهـوده ومـواثيقه ، وألحاظه ، وأنفاسه وصفاته هذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام ، أو تحاكموا فيه إليه فكانوا بحق خير خلف لخير سلف رضي الله عنهم .

وهذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة ، هي أن الحديث الشريف لقي عنـاية وحفـظاً واهتمـامـاً عظيماً من أصحاب رسول الله ﷺ في العصر النبـوي ، وهم الـذين تولوا بعد ذلك نقله بأمانة واخلاص إلى الجيل الذي تلاهم ، ثم أدت الأجيال المتعاقبة هذه الأمانة حتى وصلت إلينا في أمهات الكتب الصحيحة فلله الحمد والمنة على تهيئة هؤلاء الأصحاب الأطهار لحفظ السنة .

والله أسأل أن يجعلنا من الذين يقتدون بهم ، فنكون ممن منَّ الله عليهم فجعلهم بحق خير أمة .

وصلى الله وسلم على رسول الأمة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .